

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة

الفهرست:

- في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها

- في حقوق الأخوة والصحبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولاً وامتتانياً. وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً. ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخذاناً. وفي الآخرة رفقاء وخلاناً. والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلًا وعدلاً وإحساناً. أما بعد: فإن التحاب في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى وفيها حقوق بمراعاتها يصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزعات الشيطان، فيالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلفى وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب: الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها. الباب الثاني في حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها. الباب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد يلي بهذه الأسباب.

الباب الأول

في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها

و درجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرقة ثمرة سوء الخلق. فحسن الخلق يوجب التحاب والتألف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابير، ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة. وحسن الخلق لا تخفى في الدين فضيلته وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال: "وانك لعلى خلق عظيم" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق"، وقال أسامة بن شريك: قلنا يا رسول الله: ما خير ما أعطي الإنسان؟ فقال: "خلق حسن" وقال صلى الله عليه وسلم: "بعثت لأتمم محاسن الأخلاق"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أنقل ما يوضع في الميزان خلق حسن" وقال صلى الله عليه وسلم: "ما حسن الله خلق امرئ وخلقته فيطعمه النار" وقال صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق"، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: "تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك"، ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة ومهما طاب المثمر طابت الثمرة، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الألفة سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع، قال الله تعالى مظهرًا عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم" وقال: "فأصبحتم بنعمته إخواناً" أي بالألفة، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" إلى "لعلكم تهتدون" وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون" وقال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف" وقال صلى الله عليه وسلم في الثناء على الأخوة في الدين: "من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليمين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً" وقال عليه السلام في الترغيب في الأخوة في الله: "من آخأ أخاً في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله"، وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ: إني أحبك في الله، فقال له: أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفرح الناس وهم لا يفرحون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال: "هم المتحابون في الله تعالى"، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال فيه: "إن حول العرش منابر من نور عليها لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغيطهم النبيون والشهداء"، فقالوا: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: "هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله والمتزاورون في الله"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه"، ويقال: إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وإنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة. قال عز وجل: "ألحقنا بهم

ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء" وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي وحقت محبتي للذين يتبادلون من أجلي وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي" وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي". وقال صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طيب وطاب ممشاك وطابت لك الجنة". وقال صلى الله عليه وسلم: "إن رجلاً زار أخاً له في الله، فأرصد الله له ملكاً فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلاناً، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا، قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا، قال: فبئعته لك عنده؟ قال: لا، قال: فبم؟ قال: أحبه في الله، قال: فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة، وقال صلى الله عليه وسلم: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله"، فهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله. ويروي أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة وأما انقطاعك إلي فقد تعززت بي ولكن هل عادت لي عدواً أو هل واليت في ولياً؟ وقال صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا تجعل لفاجر علي منة فترزقه مني محبة" ويروي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: "لو أنك عبدتني بعبادة أهل السموات والأرض وحب في الله ليس وبغض في الله ليس ما أغنى عنك ذلك شيئاً"، وقال عيسى عليه السلام: "تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم" قالوا: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرعبكم في الآخرة عمله. وروي في الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران كن يقظاناً وارند لنفسك إخواناً وكل خدن وصاحب لا يؤازرك على مسرتي فهو لك عدو، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود ما لي أراك منتبذاً وحيداً؟ قال: إلهي قليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظاناً وارند لنفسك أحياناً وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني. وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال: يا رب كيف لي أن يحبني الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك؟ قال: خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك. وفي بعضها: خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة الفرعون بين الإخوان". وقال صلى الله عليه وسلم: "إن لله ملكاً نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول: اللهم كما ألفت بين الثلج والنار ألفت بين قلوب عبادك الصالحين" وقال أيضاً: "ما أحدث عبد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة يشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة: انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله فيضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس، عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم: المتحابون في الله". الآثار: قال علي رضي الله عنه: عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار "فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم" وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: والله لو صمت النهار لا أظفره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً. وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم أنني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يعطيك فاجعل ذلك قرابة لي إليك. وقال الحسن. على ضده. يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنك لن تلتحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم. وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع، وقال الفضيل في بعض كلامه: هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاوز الرحمن في داره مع النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين؟ بأي عمل عملته؟ بأي شهوة تركتها؟ بأي غيظ كظمته؟ بأي رحم قاطع وصلتها؟ بأي زلة لأخيك غفرتها؟ بأي بعيد قاربته في الله؟ ويروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: هل عملت لي عملاً قط؟ فقال: إلهي إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت، فقال: إن الصلاة لك برهان، والصوم جنة، والصدقة ظل، والزكاة نور، فأبي عمل عملت لي؟ قال موسى: إلهي دلني على عمل هو لك؟ قال: يا موسى هل واليت لي ولياً قط؟ وهل عادت في عدواً قط؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب. وقال الحسن رضي الله عنه: مصارمة الفاسق قربان إلى الله، وقال رجل لمحمد بن واسع: إني لأحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له. ثم حول وجهه وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لي مبغض. ودخل رجل على داود الطائي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: زيارتك، فقال:

أما أنت فقد عملت خيراً حين زرت، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي: من أنت فتزار؟ أمن الزهاد أنت؟ لا والله، أمن العباد أنت؟ لا والله، أمن الصالحين أنت؟ لا والله، ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقاً فلما شخت صرت مرانياً والله للمرائي شر من الفاسق، وقال عمر رضي الله عنه: إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك. وقال مجاهد: المتحابون في الله إذا التقوا فكشروا بعضهم إلى بعض تتحات عنهم الخطايا لما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا بيس. وقال الفضيل: نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا

اعلم أن الحب في الله والبغض في الله غامض وينكشف الغطاء عنه. بما نذكره: وهو أن الصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار وإلى ما ينشأ اختياراً ويقصد، وهو الذي نريد بيانه إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لا محالة إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها. والصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة. وهذه الأمور لا يقصد بها غيره إلا إذا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته، والذي يحب فإما أن يكون لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود، وذلك المقصود إما أن يكون مقصوداً على الدنيا وحظوظها، وإما أن يكون متعلقاً بالأخرة، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى فهذه أربعة أقسام. أما القسم الأول: وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوباً عندك على معنى أنك تلذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل جميل لذيق في حق من أدرك جماله وكل لذيق محبوب. واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة عني حسن الخلقة، وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعني كمال العقل وحسن الأخلاق ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ويتبع كمال العقل غزارة العلم، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم، وكل مستحسن فمستلذ به ومحبوب، بل في انتلاف القلوب أمر أغمض من هذا فإنه قد تستحکم المودة بين شخصين من غير ملاحظة في صورة ولا حسن في خلق وخلق، ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء يجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"، فالتناكر نتيجة التباين والانتلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف. وفي بعض الألفاظ: "الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام في الهواء"، وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال: إن الله تعالى خلق الأرواح فخلق بعضها فلماً وأطافها حول العرش فأى روحين من فلقتين تعارفاً هناك فالتقيا تواصلاً في الدنيا. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط"، وروي: أن امرأة بمكة كانت يضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدينة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها فقالت: أين نزلت؟ فذكرت لها صاحبته، فقالت: صدق الله ورسوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الأرواح جنود مجندة" - الحديث - . والحق في هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للانتلاف عند التناسب والتناسب في الطباع والأخلاق باطنياً وظاهراً أمر مفهوم. وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وغاية هذيان المنجم أن يقول: إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضي التناسب والتواد، وإذا كان على مقابلته أو تربيعة اقتضى التباغض والعداوة. فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجاري سنة الله في خلق السموات والأرض لكان الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلاً، وبكفيينا في التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به. قال صلى الله عليه وسلم: "لو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاؤ حتى يجلس إليه، ولو أن منافقاً دخل مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاؤ حتى يجلس إليه"، وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به، وكان مالك بن دينار يقول: لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة، قال فرأى يوماً غراباً مع حمامة فعجب من ذلك فقال: اتفقا وليسا من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال: من ههنا اتفقا، ولذلك قال بعض الحكماء: كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يتفرقا، وهذا معنى خفي تفتن له الشعراء حتى قال قائلهم:

فقلت قولاً فيه إنصاف
ولناس أشكال وألاف

وقائل كيف تفارقتما
لم يك من شكلي ففارقته

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه في حال أو مال، بل لمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع والباطنة والأخلاق الخفية. ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عيناها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح والشرب بالحمرة وإلى الماء الجاري والخضرة من غير غرض سوى عيناها. وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها. وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم إذ الحب إما محمود وإما مذموم وإما مباح ولا يحمد ولا يذم.

القسم الثاني: أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة. ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب والفضة ولا غرض فيهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده وتمهيدهم أمره في قلبه، فالمتوصل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضاً خارج عن الحب لله فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله، بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحبوبه الجاه والقبول، والعلم وسيلة إليه والأستاذ وسيلة إلى العلم، فليس في شيء من ذلك حب لله إذ لا يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى أصلاً. ثم ينقسم هذا أيضاً إلى مذموم ومباح فإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها. القسم الثالث: أن لا يحب لا لذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة فهذا أيضاً ظاهر لا غموض فيه، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة، فهذا من جملة المحبين في الله، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء، إذ قال عيسى صلى الله عليه وسلم: "من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء". ولا يتم التعليم إلا بمتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقية إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله، بل الذي يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأظعمة اللذيذة الغربية تقرباً إلى الله فأحب طبخاً لحسن صنعته في المطبخ فهو من جملة المحبين في الله، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله، بل نزيد على هذا ونقول: إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكس بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله، بل نزيد عليه ونقول: إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب في الله. فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفابيتهم جماعة من أولي الثروة وكان المواسي والمواسي جميعاً من المتحابين في الله، بل نزيد عليه ونقول: من نكح امرأة سالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه أو ليولد منها ولد صالح يدعوا له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله. ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في في امرأته بل نقول: كل من استهتر بحب الله وحبه وحب لقائه في الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محباً في الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئاً إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل، بل أزيد على هذا وأقول: إذا اجتمع في قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمؤاساة في المال فأحبه من حيث إن في طبعه طلب الراحة في الآخرة فهو وسيلة إليهما فهو محب في الله، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظاً البتة إذا الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة" وقال عيسى عليه السلام في دعاءه: اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتني لديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا، ولم يقل: ولا تجعل الدنيا أصلاً من همي، بل قال: لا تجعلها أكبر همي. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه: "اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة"، وقال: "اللهم عافني من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة" وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضاً لحب الله؟ والدنيا

والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى، فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالاً راهنة فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضاً، إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى ما لا يضاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك، فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه أعني أن يكرهه بعقله لا بطبعه، كما يكره التناول من طعام لذيق لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطع يده أو حزت رقبتة لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتبهه بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإن ذلك محال، ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به. والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يؤاسيه ويعلمه أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدهما حظ عاجل والآخر أجل لكان في زمرة المتحابين في الله. ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلاً أو تذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقده هو الله تعالى، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به، فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب، فليس حبك للذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة، فإذا يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخرية فهو داخل في جملة الحب لله وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو حب في الله، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في الله كذلك وإن دق فهو عزيز. قال الجبري: تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رق الدين وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء وفي الثالث بالمرءة حتى ذهبت المرءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة.

القسم الرابع: أن يحب الله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغمضها، وهذا القسم أيضاً ممكن فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد، فمن أحب إنساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثني عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه، وأحب من يثني عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه، حتى قال بقرية بن الوليد: إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه، وهو كما قال: ويشهد له التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بني عامر:

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
ولكن حب من سكن الديارا

أمر على الديار ديار ليلي
وما حب الديار شغفن قلبي

فإذن المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد؛ ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة لا يكفي فيه ويكون اتساع الحب في تعديه من المحبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوي وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواه، فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته ومن أحب إنساناً أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال: إنه قريب العهد بربنا، وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدق ضروب المحبة وأعلاها. وسيأتي تحقيقها في كتاب المحبة من ريع المنجيات إن شاء الله تعالى. وكيفما اتفق حب الله فإذا قوي تعدى إلى كل متعلق به ضرباً من التعلق حتى يتعدى إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه ولكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلاء يغمر لإدراك الألم، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاتبة فإن قوة المحبة تثير فرحاً يغمر إدراك الألم فيه وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا لا نفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاه حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله. وقال سمنون:

فكيفما شئت فاخترني

وليس لي في سواك حظ

وسياتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة. والمقصود أن حب الله إذا قوي أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بأداب الشرع. وما من مؤمن محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم إنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة، فذلك الميل هو حب في الله والله من غير حظ فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه ولأنه مرضي عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر، فإذا قوي حمل على الموالاة والنصرة والذود بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل، ولو كان الحب مقصوراً على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المال لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم ويفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله ومن أحب ملكاً أو شخصاً جميلاً أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب، وعنه عبر قول من قال:

فأترك ما أريد لما يريد

أريد وصاله ويريد هجري

وما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشره، فمقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته، فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئاً مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلاً ولا مالاً فسلم ابنته التي هي قرّة عينه وبذل جميع ماله. قال ابن عمر رضي الله عنهما: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فأقرأه عن الله السلام وقال له: يا رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟ فقال: "أنفق ماله علي قبل الفتح"، قال: فأقره من الله السلام وقل له: يقول لك ربك: أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟ قال: فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقال: "يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله ويقول: أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟" قال: فبكي أبو بكر رضي الله عنه وقال: أعلى ربي أسخط أنا عن ربي راض أنا عن ربي راض"، فحصل من هذا أن كل من أحب عالماً أو عابداً أو أحب شخصاً راعياً في علم أو في عبادة أو في خير فإنما أحبه في الله والله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض في الله أيضاً ولكن نزيده بياناً.

بيان البغض في الله

اعلم أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لصدّه وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالطة والموافقة فإذا ظهر في الفعل سمي موالاة ومعادة، ولذلك قال الله تعالى: "هل واليت في ولياً وهل عاديت في عدواً؟" - كما نقلناه -، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعته تقدر على أن تحبه أو لم يظهر لك إلا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن يبغضه، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالاة والمعادة فأقول: ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية، فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه، فمن له زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكي خديم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين، إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحبة وسائر الأفعال الصادرة منه.

فإن قلت: فكل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام؟ فأقول: تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصيته وتكون معه على حالة لو قستها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما وتلك التفرقة حب الإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقك والطاعة لك. فمن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه، ولا تتبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك، ولا تتبالغ في إهانته مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك. ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة، فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى. فإن قلت: فيماذا يمكن إظهار البغض؟ فأقول: أما في القول فيكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى. وأما في الفعل فبقطع السعي في إعانته مرة وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى. وبعض هذا أشد من بعض وهي بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه. أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متندم عليها ولا يصير عليها فالأولى فيه الستر والإغماض. أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة فله حكم آخر - وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء - وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة فلا بد من إظهار أثر الغض إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه. وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها، وكذلك في الفعل أيضاً رتبتان، إحداها: قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات، والأخرى: السعي في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين، وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية. أما ما لا يؤثر فيه فلا، مثاله رجل عصى الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطاً بها بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بعث وتحريض عليه، فإذا قدرت على إعانته لبتم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه فليس لك السعي في تشويشه. أما الإعانة فلو تركتها إظهاراً للغضب عليه في فسقه فلا بأس، وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحك فهذا حسن، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حقك أو حق من يتعلق بك. وفيه نزل قوله تعالى: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة" إلى قوله تعالى: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم" إذ تكلم مسطح بن أثاثة في واقعة الإفك فحلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقته - وقد كان يواسيه بالمال - فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها، إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالمجنون عليه في نفسه بتلك الواقعة والعفو عن أخلاق الصديق ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين. وإنما يحسن الإحسان إلى من أساء من ظلمك، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن الإحسان إليه لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم وحق المظلوم أولى بالمراعاة وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حقك العفو والصفح، وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله معصية متعدية منه إلى غيره، فأما من عصى الله في نفسه فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة. فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكاير في أدنى كلمة، حتى هجر يحيى بن معين لقوله: إني لا أسأل أحداً شيئاً ولو حمل السلطان إلي شيئاً لأخذته. وهجر الحارث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة وقال: إنك لا بد تورد أولاً شبهتهم وتحمل الناس على التفكير فيها ثم ترد عليهم، وهجر أبو ثور في تأويله قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم على صورته"، وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطراب الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلاً في المعادة والبغض وله وجه ولكن قد تلتبس به المداينة فأكثر البواعث على الإغماض عن المعاصي المداينة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها، وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبي الأحمق بأنه ينظر بعين الرحمة ومحك ذلك أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الحذر، وكيف لا يفعله وقد كتب عليه فمثل هذا قد تصح له نية في الإغماض عن الجناية على حق الله وإن كان يغتاض عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مدهن مغرور بمكيدة من مكاييد الشيطان فليتنبه له. فإن قلت: فأقل الدرجات في إظهار البغض الهجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة فهل يجب ذلك حتى يعصي العبد بتركه؟ فأقول: لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكاليف والإيجاب فإننا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحاب ما كانوا يهجرون بالكلية بل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له، وإلى من يعرض عنه ومن لا يتعرض له، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ور يؤثر المقاطعة والتباعد، فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على

ما يقتضيه حاله ووقته، ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدي إفراط الحب واستيلاؤه، وذلك لا يدخل في الفتوى وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلاً.

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم: فإن قلت: إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجباً فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفساق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجمعهم مسلماً واحداً أم لا؟ فاعلم أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفاً في عقده أو في عمله، والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت والساكت إما بعجزه أو باختياره: فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة: الأول: الكفر، فالكافر إن كان محارباً فهو يستحق القتل والإرفاق وليس بعد هذين إهانة، وأما الذمي فإنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقيق له بالاضطرار إلى أضيق الطرق وبترك المفاتحة بالسلام، فإذا قال: السلام عليك، قلت: وعليك. والأولى الكف عن مخاطبته ومعاملته ومؤاكلته، وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي ما يقوى منها إلى حد التحريم، قال الله تعالى: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم" الآية، وقال صلى الله عليه وسلم: "المسلم والمشرک لا تتراءى ناراهما" وقال عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء" الآية.

الثاني: المبتدع الذي يدعو إلى بدعته. فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمي لأنه لا يقر بجزية ويسامح بعقد ذمة وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعد، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله إذ لا يدعي لنفسه الإسلام واعتقاد الحق. أما سبب المبتدع الذي يدعو إلى البدعة ويزعم يدعو أن ما إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعد، فالاستحباب في إظهار بغضه ومعاداته والانتقاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببذعته وتنفير الناس عنه أشد، وإن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يقبح في نفسه بدعته ويؤثر في زجره فترك الجواب أولى لأن جواب الإسلام وإن كان واجباً فيسقط بأدنى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان في الحمام أو في قضاء حاجته وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض، وإن كان في ملاء فترك الجواب أولى تنفيراً للناس عنه وتقبيحاً لبدعته في أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لا سيما فيما يظهر للخلق قال عليه السلام: "من انتهر صاحب بدعة ملاً الله قلبه أمناً وإيماناً، ومن أهان صاحب بدعة أمنه الله يوم الفرع الأكبر، ومن ألان له وأكرمه أو لقيه ببشر فقد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم". الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون، فالأولى أن لا يقابح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به في النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الإعراض، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجمود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالإعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها. وأما العاصي بفعله وعمله لا باعتقاده فلا يخلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والتنصير بين الناس والمشى بالنميمة وأمثالها. أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤدي غيره وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدعو غيره إلى فعله كالذي يشرب ويزني، وهذا الذي لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة، وكل واحد فإما أن يكون مصرأ عليه أو غير مصر، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولا نسلك بالكل مسلماً واحداً.

القسم الأول: وهو أشدها: ما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانتقاص عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما رجع إلى إيذاء الخلق. ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في الدماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض، وبعضها أشد من بعض فالاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جداً، ومهما كان يتوقع من الإهانة زجراً لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه أكد وأشد.

الثاني: صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طريقه على الخلق، فهذا لا يؤدي الخلق في دنياهم ولكن

يختلس بفعله دينهم، وإن كان على وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه، فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث إنه متعدد على الجملة إلى غيره فهو شديد، وهذا أيضاً يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعاً من الزجر له أو لغيره.

الثالث: الذي يفسق في نفسه بشرب الخمر أو ترك واجب أو مقارفة محذور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهي عن المنكر واجب، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع، فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصير وأن النصح ليس ينفعه، فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال: الأعمال بالنيات إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتى فيه القلب، فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاد بإظهار العلو والإدلال بالصلاح، وقد يكون رفقاً عن مداينة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته في جاه أو مال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة، فكل راغب في أعمال الدين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال، والقلب هو المفتى فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة. وسيأتي بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربيع المهلكات. ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روي أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعود، فقال واحد من الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يشرب، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تكن عوناً للشيطان على أخيك"، أو لفظاً هذا معناه وكان هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ.

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته: اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان. قال صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"، ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشتتر تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط. ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية: أما الدنيوية، فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا. وأما الدينية، فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة، ومنها الاستفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة فقد قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعته أخيك. وروي في غريب التفسير في قوله تعالى: "ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله" قال: يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. ويقال: إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه، ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد، فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها، ونحن نفصلها: أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا. أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طال. قال علي رضي الله عنه:

وإياك وإياه	فلا تصحب أبا الجهل
حليماً حين آخاه	فكم من جاهل أوردى
إذا ما المرء ماشاه	يقاس المرء بالمرء
مقاييس وأشباه	وللشيء من الشيء
دليل حين يلقاه	وللقب على القلب

كيف والأحمق قد يضررك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري ولذلك قال الشاعر:

إني لأمن من عدو عاقل
فالعقل فن واحد وطريقه
وأخاف خلا يعتريه جنون
أدرى فأرصد والجنون فنون

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. وقال الثوري: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم. وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته. وأما الفاسق المصير على الفسق فلا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض. وقال تعالى: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه" وقال تعالى: "فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه" وقال تعالى: "فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا" وقال: "واتبع سبيل من أناب إلي" وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق. وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدّي شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب قال: عليك بإخوان الصديق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجينك ما يغلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سره واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى. وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتدأك وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولتما أمراً أمرك وإن تنازتما أترك، فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائماً بجميعها. قال ابن أكنم: قال المأمون فأين هذا؟ فقيل له: أتدري لم أوصاه بذلك؟ قال لا. لأنه أراد أن لا يصحب أحداً. وقال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس إلا من يكرمك ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسناتك ويطوي سيئاتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقال علي رضي الله عنه:

إن أخاك الحق من كان معك
ومن إذا ريب زمان صدعك
ومن يضر نفسه لينفعك
شئت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أو رجل تعلمه شيئاً في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه. وقال بعضهم: الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشعب منه. وآخر مر كله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفكك فيضررك. والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة، والفاسق فإنه يبيعه بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها. وقال الجنيد: لأن يصحبي فاسق حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبي قارئ سيئ الخلق. وقال ابن أبي الحواري: قال لي أستاذي أبو سليمان: يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين: رجلاً ترتفق به في أمر دنياك، أو رجلاً تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك، والاشتغال بغير هذين حمق كبير. وقال سهل بن عبد الله: اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المدهنين، والمتصوفة الجاهلين. واعلم أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس ما يشترط للصحبة في مقاصد الدنيا مشروطاً في الآخرة والأخوة كما قاله كما قاله بشر. الإخوان ثلاثة: أخ لأخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به. وقلمما تجتمع هذه المقاصد في واحد بل تتفرق على جمع فتتفرق الشروط فيهم لا محالة. وقد قال المأمون: الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط. ولكن العبد قد يبتلي به وهو الذي

لا أنس فيه ولا نفع. وقد قيل: مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات، فمنها ما له ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها ما له ثمر وظل جميعاً، ومنها ما له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب، كما قال تعالى: "يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير" وقال الشاعر:

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم
هذا له ثمر حلو مذاقته
لا يستوون كما لا يستوي الشجر
وذاك ليس له طعم ولا ثمر

فإذا لم يجد رفيقاً يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالواحدة أولى به. قال أبو ذر رضي الله عنه: الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة، ويروى مرفوعاً. وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى: "واتبع سبيل من أناب إلي" ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها. قال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لا سلامة في مخالطتهم، وإنما السلامة في الانقطاع عنهم. قال الله تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" أي سلامة والألف بدل من الهاء، ومعناه إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا، فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقها. وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والإقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة. قال علي عليه السلام: أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أوقعتني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه. وقال لقمان يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر.

الباب الثاني

في حقوق الأخوة والصحبة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح. كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح. فكذا عقد الأخوة، فلأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف وذلك يجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول

في المال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى"، وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد، فكذا الأخوان إنما تتم أخوتهم إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستثمار. والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب: أدناها: أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سئمت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم توجه إلى السؤال فإن أوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

الثالثة: وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضاً، كما روي أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسن النوري فبادر إلى السيف ليكون هو أول مقتول فقيل له في ذلك فقال: أحببت أن أؤثر

إخواني بالحياة في هذه اللحظة، فكان ذلك سبب نجاتهم جميعهم في حكاية طويلة، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون بن مهران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور. وأما الدرجة الدنيا فليست أيضاً مرضية عند ذوي الدين، روي أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد أخاه فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال أثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعي الأخوة في الله وتقول هذا، ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا. قال أبو حازم: إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك وإنما أراد به من في هذه الرتبة. وأما الرتبة العليا: فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله: "وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون" أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض، وكان منهم من لا يصحب من قال: نعلي، لأنه أضافه إلى نفسه. وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائباً، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاها فقال: إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سروراً بما فعل. وجاء رجل إلى أبو هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريد أن أوخيك في الله فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد؟ فذهب عني. وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا قال: فليست بإخوان. ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا: يا أبا سعيد أصليت؟ قال: نعم، قالوا: فإن أهل السوق لم يصلوا بعد، قال: ومن يأخذ دينه من أهل السوق؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم! قاله كالمتعجب منه. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: على أن أكون أملك لشئيك منك: قال: لا، قال: أعجبني صدقك، قال: فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه وكان لا يصحب إلا من يوافقه، وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية، فلما جاء رفيقه قال: أين الشراك؟ قال: ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان؟ قال: كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة. قال: اسمح بسمح لك. وأعطى مرة حماراً كان لرفيقه بغير إذنه رجلاً رآه فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك. قال ابن عمر رضي الله عنهما أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة، فقال: أخي فلان أوج مني إليه فبعث به إليه فبعث ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به من واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة. وروي أن مسروقاً أذان ديناً ثقيلاً وكان على أخيه خثيمة دين قال: فذهب مسروق ففضى دين خثيمة وهو لا يعلم وذهب خثيمة ففضى دين مسروق وهو لا يعلم، ولما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فيهما فأثره بما أثره به، وكانه قبله ثم أثره به وذلك مساواة والبدائية إيثار والإيثار أفضل من المساواة. وقال أبو سليمان الداراني: لو أن الدنيا كلها لي لجعلتها في قم أخ من إخواني لاستقلتها له. وقال أيضاً: إني لألقم للقممة أماً من إخواني فأجد طعمها في حلقي. ولما كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال علي رضي الله تعالى عنه: لعشرون درهماً أعطيتها أخي في الله أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضاً: لأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلي من أن أعتق رقبة. واقتداء الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه، فقال له: يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني فقال: "ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه". فأشار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله في الصحبة. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل وقال صلى الله عليه وسلم: "ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه"، وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائباً فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك: كف يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقاً فدخل الحسن وقال: يا مويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضاً حتى ظهرت أنت وأصحابك. وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة كيف وقد قال الله تعالى: "أو صديقكم" وقال: "أو ما ملكتم مفاتحه" إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء.

الحق الثاني

في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها

قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضاً لها درجات كما للمواساة بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة. وقال بعضهم: إذا استقيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فاعله أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكر عليه واقراً هذه الآية: "والموتى يبعثهم" وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض لإخوانه كبيرة فجاء بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديتني علي، فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضاً للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى. قال جعفر بن محمد: إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني: هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول: هل لكم زيت، هل لكم ملح، هل لكم حاجة؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه. وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها. قال ميمون بن مهران: من لم تنفع بصداقته لم تضرك عداوته. وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن الله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها، أصفاها من الذنوب وأصلبها في الدين وأرقها على الإخوان" وبالجملة، فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها، بل تتقصد منة بقبوله سعيك على الأقراب والولد. كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكرنا بالدنيا بالآخرة. وقال الحسن: من شيع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة. وفي الأثر: "ما زار رجل أخاً في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة". وقال عطاء: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم. وروي: "أن ابن عمر كان يلتفت يميناً وشمالاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال: أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه فقال: إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعنته". وفي رواية: وعن اسم جده وعشيرته. وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه: تلك معرفة النوكي. وقيل لابن عباس: من أحب الناس إليك؟ قال: جليسي، وقال: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة له إلي فعلمت ما مكافأته من الدنيا. وقال سعيد بن العاص: لجليسي علي ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقد قال تعالى: "رحمنا بينهم" إشارة إلى الشفقة والإكرام. ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيق أو بحضور في مسرة دونه بل يتنصص لرفاقه ويستوحش بانفراده عن أخيه.

الحق الثالث

في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يتقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه، وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن، وأن يسكت عن القدر في أحبائه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سبك من بلغك. وقال أنس: "كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بشيء يكرهه"، والتأذي يحصل أولاً من المبلغ ثم من القائل، نعم لا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه فإن السرور به أولاً يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد. وبالجملة، فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فإذا ذاك لا يبالي بكرهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساوته وعيوبه ومساوي أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ويزجر عنه أمران: أحدهما:

أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهون على نفسك ما تراه من أخيك وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله يخلصه واحدة مذمومة فأبي الرجال المهذب؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حقاك عليه بأكثر من حق الله عليك. والأمر الثاني: أنك تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلاً فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى، فالمؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعت من قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساوئ والعيوب. قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات. وقال الفضيل: الفتوة العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام: "استعيذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره"، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقيحه أيضاً. روي أن رجلاً أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام: "أنت بالأمس تثنى عليه واليوم تذمه؟" فقال: والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما عملت فيه وأغضبني اليوم فقلت أفصح ما عملت فيه فقال عليه السلام: "إن من البيان لسحراً"، وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر، ولذلك قال في خبر آخر: "البذاء والبيان شعبتان من النفاق"، وفي الحديث الآخر: "إن الله يكره لكم البيان كل البيان" وكذلك قال الشافعي رحمه الله: ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه. فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى. وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضاً، وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه عليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن، وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرساً وهو الذي يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكاً ضرورياً لا يقدر على دفعه، وإلى ما من منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأردل من غير علامة تخصه به، وذلك جنابة عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن. إذ قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"، وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً"، والتجسس في تطالع الأخبار والتجسس بالمراقبة بالعين. فستر العيوب والتجاهل والتعافل عنها شيمة أهل الدين. ويكفيك تنبيهاً على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجميل أن الله تعالى وصف به في الدعاء فقيل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح والمرضي عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستر العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العيب، فكيف لا تتجاوز أنت عن من هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً وقد كشف الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه، قال: بل تكشفون عورته، قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال: أحدمك يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها. واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يجب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوئ والعيوب، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه فما أبعد إذا كان ينتظر منه ما لا يضره له ولا يعزم عليه لأجله، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال: "ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" وكل من يلتبس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية. ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسد، فإن الحقد الحسود يملأ باطنه بالخبت ولكن يحبسه في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالاً وإذا مجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء ويترشح الباطن بخبئه الدفين. ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى، قال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيد لطف الحقد إلا وحشة منه، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره مخطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله. وقد زوى عبد الرحمن بن جبيرة بن نفيير عن أبيه أنه قال: كنت باليمن ولي جار يهودي يخبرني عن التوراة فقدم علي اليهودي من سفر فقلت إن الله قد بعث فينا نبياً فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا وقد أنزل علينا كتاباً مصدقاً للتوراة، فقال اليهودي: صدقت ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به، إنا نجد نعته ونعت أمته في التوراة: إنه لا يحل لامرئ أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم. ومن ذلك أن يسكت عن إفساء سره الذي استودعه، وله أن ينكره وإن كان كاذباً فليس الصدق واجباً في كل مقام، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه، فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن، هذه حقيقة الأخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يدي مرانياً وخارجاً عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن

معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق، وقد قال عليه السلام: "من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة"، وفي خبر آخر: "فكأنما أحيا موعودة"، وقال عليه السلام: "إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة"، وقال: "المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: مجلس يسفك فيه دم حرام، ومجلس يستحل فيه فرج حرام، ومجلس يستحل فيه مال من غير حله"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره".

قيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا أقبره. وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقيل: إن قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه، أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبيديه من حيث لا يدري به. فمن هذا يجب مقاطعة الحمقى والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم. وقد قيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ قال: أجدد المخبر وأحلف للمستخبر. وقال آخر: استره وأستر أني أستره وعبر عنه ابن المعتز فقال:

ومستودعي سرا تيوات كتمه
فأودعته صدري فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه:

وما السر في صدري كثاؤ بقبره
ولكنني أنساه حتى كأني
ولو جاز كتم السر بيني وبينه
لأنني أرى المقبور ينتظر النشرا
بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وأفشى بعضهم سرا له إلى أخيه ثم قال له: حفظت؟ فقال: بل نسيت. وكان أبو سعيد الثوري يقول: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيراً وكنتم سرك فاصحبه. وقيل لأبي يزيد: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله. وقال ذو النون: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوماً ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها. وقد قال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طعمه وهواه. بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتاً على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل:

وترى الكريم إذا تصرم وصله
وترى اللئيم إذا تقضى وصله
يخفي القبيح ويظهر الإحسانا
يخفي الجميل ويظهر البيهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله: إنني أرى هذا الرجل. يعني عمر رضي الله عنه. يقدمك على الأشياء فاحفظ عني خمساً: لا تفشين له سرا، ولا تغتابين عنده أهدأ، ولا تجرين عليه كذبا، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة، فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف. ومن ذلك السكوت عن الممارسة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك. قال ابن عباس: لا تمار سفيهاً فيؤذيك ولا حليماً فيقلبك. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربح الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة" هذا مع أن تركه مبطلاً واجب، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل، وإنما الأجر على قدر النصب. وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان الممارسة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التقاطع يقع أولاً بالأراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان. وقال عليه السلام: "لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم"، وأشد الاحتقار الممارسة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسبه إلى الجهل والحمق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقاق وإيغار للصدر وإيحاش. وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب وقال: "ذروا المراء لقلته خيره وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان"، وقال بعض السلف: من لاحى الإخوان ومارهم قلت مروءته وذهبت كرامته. وقال عبد الله بن الحسن: إياك وممارسة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم. وقال بعض السلف: أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم، وكثرة الممارسة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة. وقد قال الحسن: لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل. وعلى الجملة؛ فلا باعث على الممارسة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحمق والجهل، ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامنه الأخوة والمصافاة؟ فقد روى ابن عباس عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه"، وقد قال عليه السلام: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق"، والممارسة مضادة لحسن الخلق. وقد انتهى السلف في الحذر عن الممارسة والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلاً. وقالوا: إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين؟ فلا تصحبه بل قالوا ينبغي أن يقوم ولا يسأل. وقال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النواصب فأقول: أعطني من مالك شيئاً، فكان يلقي إلي كيسه فأخذ منه ما أريد، فجننته ذات يوم فقلت: أحتاج إلى شيء. فقال: كم تريد؟ فخرجت حلوة إخوانه من قلبي. وقال آخر: إذا طلبت من أخيك مالا فقال: ماذا تصنع به؟ فقد ترك حق الإخاء. واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة. قال أبو عثمان الحيري: موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم، وهو كما قال.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق: فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحباب، بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما تراء الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم، والسكوت معناه كف الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقه في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار قلبه بسببه واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراحتها، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها. فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء، وقد قال عليه السلام: "إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره"، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فإذا عرفت أنه أيضاً يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف. والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين، ولذلك علم فيه الطريق فقال: "تهادوا تحابوا"، ومن ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه إليه في غيابه وحضوره. قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه. ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعتهم وفعله حتى على عقله وخلقه وهيبته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه وأكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد، ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك.

قال علي رضي الله عنه: من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنعة. وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكي المتعنت وتغليظ القول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة. وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليد تغسل إحداهما الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يثلمه"، وهذا من الائتلاف والخذلان فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه. فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك! وتمزيق الأعراس أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: "أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً" والملك الذي يمثله في المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة، حتى أن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يفتاب الناس لأن ذلك الملك في تمثيله يراعي المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثال مجرى الروح؛ لا في ظاهر الصور. فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعت المتعنتين واجب في عقد الأخوة. وقد قال مجاهد: لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك، فإذن لك فيه معياران: أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك؟ فينبغي أن تعامل المعترض لعرضه به. والثاني: أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصره له بمسمع منه ومرأى؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك فقد قال بعضهم: ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالساً فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر، وقال آخر: ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في. وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه. وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان فوقف أحدهما يحك جسمه فوق الآخر؛ فبكى وقال: هكذا الإخوان في الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما واقفه الآخر. وبالموافقة يتم الإخلاص ومن لم يكن مخلصاً في إخوانه فهو منافق. والإخلاص استواء الغيب والشهادة واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلوة والاختلاف، والتفاوت في شيء من ذلك مماذقة في المودة وهو دخل في الدين ووليجة في طريق المؤمنين، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة، فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا

محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق. ولذلك قال عليه السلام: "أبا هر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة صاحبك تكن مؤمناً"، فانظر كيف جعل الإيمان جزء الصحة والإسلام جزء الجوار؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحة. فإن الصحة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم. ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مؤاساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفع في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده وتركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه وتقيح القبيح في عينه وتحسن الحسن، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد فما كان على المأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن مرآة المؤمن". أي يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة. وقال الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحتني فيما بيني وبينه فنعم وإن قر عني بين المأ فلا. وقد صدق، فإن النصح على المأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرّاً، وقد يدفع كتاب عمله مختوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوماً ليقرأه، وأما أهل المقت فينادون على رؤوس الأشهاد وتستنتطق جوارحهم بفضائحهم فيزدادون بذلك خزيًا وافتضاحاً ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر. فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء. لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن. قال ذو النون: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناسبة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة. فإن قلت: فإذا كان في النصح ذكر العيوب ففيه إيحاش للقلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة؟ فاعلم أن الإيحاش: إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذلك وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من إخوانه ويقول: رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه: ما الذي بلغك عني مما تكره؟ فاستعفى، فألح عليه فقال: بلغني أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل، وبلغني أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة، فقال عمر رضي الله عنه: أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما؟ فقال: لا. وكتب حذيفة المرعشي إلى يوسف بن أسباط: بلغني أنك بعثت دينك بحبتين: وفتت على صاحب لبن فقلت: بكم هذا؟ فقال: بسدس، فقلت له: لا... بئمن! فقال: هو لك، وكان يعرفك. اكتشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى، واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وأثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين إذ قال: "ولكن لا تحبون الناصحين" وهذا في عيب هو غافل عنه، فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره وإن كان يخفيه، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش، فإن علمت أن النصح غير مآثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل، إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به والاسترقاق منه.

قال أبو بكر الكتاني: صحبني رجل وكان على قلبي ثقبلاً فوهبت له يوماً شيئاً على أن يزول ما في قلبي فلم يزل؛ فأخذت بيده يوماً إلى البيت وقلت له: ضع رجلك على خدي، فأبى، فقلت: لا بد، ففعل، فزال ذلك من قلبي. وقال أبو علي الرباطي: صحبت عبد الله الرازي وكان يدخل البادية فقال: على أن تكون أنت الأمير أو أنا؟ فقلت: بل أنت فقال: وعليك الطاعة فقلت: نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطني. قال: ألسنت قلت: أنت الأمير؟ فعليك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمين عني المطر فكنت أقول مع نفسي: ليتني مت ولم أقل: أنت الأمير.

العفو عن الزلات والهفوات

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقه بنقصيره في الأخوة. أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته. فذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى الانقطاع وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبعضه من حيث أحببته، ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله. وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى. وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإن يرتكبه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضاً: لا تحدثوا الناس بزلة العالم فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها. وفي الخبر: "اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فينته". وفي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان أخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان قال: مه، قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. قال: إذا أردت الخروج فأذني فكتب عند خروجه إليه "بسم الله الرحمن الرحيم": "حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب" الآية، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله. فلما قرأ الكتاب بكى وقال: صدق الله ونصح لي عمر فتاب ورجع.

وحكي أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال: إنني قد اعتللت فإن شئت أن لا تعتد على صحبتي لله فافعل، فقال: ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبداً، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يتحلل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزلاً وضراً.

وكذلك حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقبل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إلي في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن أخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه. وروي في الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشترى من المصر لحماً بدرهم فرأى بغياً عند اللحم فرمقها وعشقها واجتذبتها إلى خلوة وواقعها، ثم أقام عندها ثلاثاً واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياءً من جنائته. قال: فافتقده أخوه واهتم بشأنه فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحياؤه منه فقال: قم يا أخي فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إلي ولا أعز من ساعتك هذه، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه. فهذه طريقة قوم وهي ألطف وأفقه من طريقة أبي ذر رضي الله عنه، وطريقته أحسن وأسلم. فإن قلت: ولم قلت هذا ألطف وأفقه ومقارن هذه المعصية لا تجوز مؤاخاتة ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها، وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية؟ فأقول: أما كونه ألطف فلما فيه من الفقه والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر. وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به أن لا يمهل أيام حاجته وفقره وفقير الدين أشد من فقر المال، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعي ولا يهمل، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به. فالأخوة عدة للنايات وحوادث الزمان وهذا من أشد النوائب، والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومدامته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار بل الكسلان يصطحب الحريص في العمل فيحرص حياءً منه. قال جعفر بن سليمان: مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلي نشاطي في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعاً وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كلحة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في عشيرته: "فإن عصوك فقل إنني بريء مما تعملون" ولم يقل إنني بريء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب. وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة. ولذلك قيل لحكيم: أيما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقاً لي. وكان الحسن يقول: كم من أخ لم تلده أمك؟ ولذلك قيل: القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائة من قطعها قطعها الله.

فإذن الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب. وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق، فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقاطع بل يجامل. والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحة ابتداء ليس مذموماً ولا مكروهاً بل قال قائلون: الانفراد أولى؛ فأما قطع الأخوة عن دوامها فمنهي عنه ومذموم في نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح، قال صلى الله عليه وسلم: "شرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة"، وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان: ود الشيطان أن يلقي على أحيكم مثل هذا حتى تهجره وتقطعوه، فماذا اتقيتم من محبة عدوكم. وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارفة العصيان من محابه؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني، وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال: "مه" وزبره وقال: "لا تكونوا عوناً للشيطان على أحيكم"، فهذا كله يبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفاسق محذورة، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضاً محذورة، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى في الدوام تعارضاً فكان الوفاء بحق الأخوة أولى هذا كله في زلته في دينه. أما زلته في حقه بما يوجب إحاشه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيهه على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة فقد قيل: ينبغي أن تنبسط لزلة أخيك سبعين عذراً فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك فتقول لقلبك: ما أقساك يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرضى فهو شيطان فلا تكن حماراً ولا شيطاناً واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك واحترز أن تكون شيطاناً إن لم تقبل قال الأحنف: حق الصديق أن تحتل منه ثلاثاً: ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وقال آخر: ما شتمت أحداً قط لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضاً ثم تمثل وقال:

وأعرض عن شتم اللئيم تكراً

وأغفر عوراء الكريم ادخاره

وقد قيل:

ودع الذي فيه الكدر

خذ من خليلك ما صفا

تبه الخليل على الغير

فالعمر أقصر من معا

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً كان أم صادقاً فاقبل عذره. قال عليه السلام: "من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب المكس"، وقال عليه السلام: "المؤمن سريع الغضب سريع الرضا"، فلم يصفه بأنه لا يغضب. وكذلك قال الله تعالى: "والكاظمين الغيظ" ولم يقل والفاقدين الغيظ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم، بل تنتهي إلى أن يصير عليه ويحتمل، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب، ولا يمكن قلعه ولكن يمكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه، فإنه يقتضي التشفى والانتقام والمكافأة، وترك العمل بمقتضاه ممكن، وقد قال الشاعر:

على شعث أي الرجال المهذب

ولست بمستبق أخواً لا تلمه

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحوراني: إذا واخيت أحداً في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول، فجربته فوجدته كذلك. وقال بعضهم: الصبر على الأخ خير من معاتبته، والمعاتبه خير من القطيعة. وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقية. قال تعالى: "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة" وقال عليه السلام: "أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما"، وقال عمر رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضبك تلفاً، وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك.

الحق السادس

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إذا دعا الرجل لأخيه فهو في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك"، وفي لفظ آخر: يقول الله تعالى: "بك أبدأ يا عبدي"، وفي الحديث: "يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه"، وفي الحديث: "دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد"، وكان أبو الدرداء يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسيمهم بأسمائهم. وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول:

وأين مثل الأخ الصالح؟ اهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلقت، وهو منفرد بحزنك مهتم بما قدمت وما صرت إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى، وكان الأخ الصالح يقتدي بالملائكة، إذ جاء في الخبر: "إذا مات العبد قال الناس: ما خلف؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟"، يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشقون عليه، ويقال: من بلغه موت أخيه فترحم عليه وأستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو أخ أو قريب"، وأنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال. وقال بعض السلف: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه مندبل من نور فيقول: هذه هدية لك من أخيك فلان، من عند قريبك فلان، قال: فسيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية

الحق السابع

الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للأخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي، ولذلك قال عليه السلام في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: "ورجلان تحابا في الله اجتماعاً على ذلك وتفرقا عليه"، وقال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة، ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزاً دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: "إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين"، فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى الكلب الذي على باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخيين في الله ومتحبين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال الله تعالى: "وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم" وقال مخبراً عن يوسف: "من بعد إن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي" ويقال: ما تواخى اثنان في الله فتفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما. وكان بشر يقول: إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه. وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين. ولذلك قال ابن المبارك: ألد الأشياء مجالسة الإخوان والانتقال إلى كفاية، والمودة الدائمة هي التي تكون في الله، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض. ومن ثمرات المودة في الله أن لا تكون مع الحسد في دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإنه ترجع فاندته؟ وبه وصف الله تعالى المحبين في الله فقال: "ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم" ووجود الحاجة هو الحسد. ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم. قال الشاعر:

من كان يألفهم في المنزل الخشن

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بني لا يصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك. وقال بعض الحكماء: إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير. وحكى الربيع: أن الشافعي رحمه الله أخى رجلاً ببغداد ثم إن أخاه ولي السببيين فتغير له عما كان عليه، فكتب إليه الشافعي بهذه الأبيات:

أبدأ وليس طلاق ذات البين
ويدوم ودك لي على ثنتين
فتكن تطليقين في حيضين
لم تغن عنك ولاية السببيين

أذهب فودك من فؤادي طالق
فإن ارعوبت فإنها تطليقة
وإن امتنعت شفعتها بمثالها
وإذا التلاث أتتك مني بته

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء المخالفة، فقد كان الشافعي رضي الله عنه أخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره؛ فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال:

مرض الحبيب فعدته
وأتى الحبيب يعودني

فمرضت من حذري عليه
فبرئت من نظري إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقة إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه؛ فقال الشافعي: سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع. فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى. فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله. وأثر البويطي الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف "كتاب الأم" الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويغرف به، وإنما صنفه البويطي ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره. والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله. قال الأحنف: الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير. ومن آثار الصدق والإخلاص وتام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة، فنور الطبع عن أسبابها كما قيل:

وجدت مصيبيات الزمان جميعها

سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وأشدد ابن عيينة هذا البيت وقال: لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلي أن حسرتهم ذهبت من قلبي. ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لا سيما من يظهر أولاً أنه محب لصديقه. كيلا يتهم. ثم يلقي الكلام عرضاً وينقل عن الصديق ما يوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلاً. قال واحد لحكيم: قد جنتك خاطباً لمودتك، قال: إن جعلت مهرها ثلاثاً فعلت، قال: وما هي؟ قال: لا تسمع علي بلاغة ولا تخالفني في أمر ولا توطئني عشوة. ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه. قال الشافعي رحمه الله: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك.

الحق الثامن

التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل بروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن أن يحمله شيئاً من أعبائه، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلفائه به على دينه وتقرباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته. قال بعضهم: من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم مثل ما يقضونه فقد أتعبهم، ومن لم يقض فهو المتفضل عليهم. وقال بعض الحكماء: من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا وتام التخفيف بطي بساط التكلف حتى لا يستحق منه فيما لا يستحي من نفسه. وقال الجنيد ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعله في أحدهما. وقال علي عليه السلام: شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار. وقال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه. وقالت عائشة رضي الله عنها: المؤمن أخو المؤمن لا يغتمه ولا يحتمه. وقال الجنيد: صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة. كل طبقة ثلاثون رجلاً. حارثاً المحاسبي وطبقته، وحسناً المسوحي وطبقته، وسرياً السقطي وطبقته، وابن الكريبي وطبقته، فما تواخى اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعله في أحدهما. وقيل لبعضهم: من نصحب؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل أخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم علي قلبي من أكون معه كما أكون وحدي. وقال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلا من لا يزيدك عنده بئر ولا تنقص عنده بائتم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء، وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ. وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده. وقال بعضهم: كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت، وقال آخر: لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ويعتذر عليك إذا أسأت ويحمل عنك مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه. وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس

وليس الأمر كذلك بل ينبغي أن يؤاخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه، إذ به يكون مؤاخياً في الله وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط. ولذلك قال رجل للجنيدي: قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله؟ فأعرض الجنيدي حتى أعاده ثلاثاً، فلما أكثر قال له الجنيدي: إن أردت أماً يكفبك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمرى قليل، وإن أردت أماً في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أداءه فعندي جماعة أعرفهم لك. فسكت الرجل. واعلم أن الناس ثلاثة: رجل تنتفع بصحبته، ورجل تقدر على أن تنتفعه ولا تنتضرر به ولكن لا تنتفع به. ورجل لا تقدر أيضاً على أن تنتفعه وتنتضرر به وهو الأحمق أو السيء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه، فأما الثاني فلا تجتنبه لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إن أطعنتي فما أكثر إخوانك أي إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم. وقد قال بعضهم: صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف فإني كنت معهم على نفسي ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه. ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض في نوافل العبادات. كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان: إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر، وإن نام الليل كله لم يقل له قم؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له: نم، وتستوي حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة. وقد قيل: من سقطت كلفته دامت ألفته، من خفت مؤنته دامت مودته. وقال بعض الصحابة: إن الله لعن المتكلفين وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا والأتقياء من أمتي براء من التكلف"، وقال بعضهم: إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به إذا أكل عنده، ودخل الخلاء، وصلى. ونام. فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال: بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجمعها، لأن البيت يتخذ للاستخفاء في الأمور الخمس، وإلا فالمساجد أروح لقلوب المتعبدين، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط. وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك، إذ يقول أدهم لصاحبه: مرحباً وأهلاً وسهلاً، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا، ولك عندنا سهولة في ذلك كله، أي لا يشتد علينا شيء مما تريد. ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منهم، وقال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني، قيل وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلني على نفسه فهو خير مني، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له"، فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ. ولذلك قال سفيان: إذا قيل لك يا شر الناس فعصبت فأنت شر الناس أي ينبغي أن تكون معتقداً ذلك في نفسك أبداً. وسيأتي وجه ذلك في كتاب الكبر والعجب. وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان أبيات:

تذلل لمن إن تذلللت له	يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يزا	ل على الأصدقاء يرى الفضل له
كم صديق عرفته بصديق	صار أحظى من الصديق العتيق
ورفيق رأيت في طريق	صار عندي هو الصديق الحقيقي

وقال آخر:

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم. قال صلى الله عليه وسلم: "بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم"، ومن تنمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده، ويقبل إشاراتهم، فقد قال تعالى: "وشاورهم في الأمر" وينبغي أم لا يخفي عنهم شيئاً من أسرارهم كما روي أن يعقوب ابن أخي معروف قال: جاء أسود بن سالم إلى عمي معروف وكان مؤاخياً له فقال: إن بشر بن الحارث يحب مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعتقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتد بها إلا أنه يشترط فيها شروطاً: لا يحب أن يشتهر بذلك ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة فإنه يكره كثرة الالتقاء، فقال معروف: أما أنا لو أخيت أحداً لم أحب مفارقتة ليلاً ولا نهراً ولزرتة في كل وقت وأثرته على نفسي في كل حال، ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فشاركه في العلم وقاسمه في البدن وأنكحه أفضل بناته وأجهن إليه وخصه بذلك لمؤاخاته وأنا أشهدك أنني قد عقدت له أخوة بيني وبينه وعقدت إخاءه في الله لرسالتك ولمسألته على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكنني أزوره متى أحببت، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها، ومره أن لا يخفي علي شيئاً من شأنه وأن يطلعني على جميع أحواله، فأخبر ابن سالم بشراً بذلك فرضي وسر به. فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرة وفصلناه أخرى، ولا يتم ذلك

إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك.

أما البصر؛ فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك، وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك. روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطي كل من جلس إليه نصيباً من وجهه وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسأله وتوجهه للجالس إليه وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما يحدثونه به، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيراً له عليه السلام.

وأما السمع، فبأن تسمع كلامه مثلثاً بسماعه ومصداقاً به ومظهراً للاستيثار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرفقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون.

وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فإن القول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون.

وأما اليدين؛ فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد.

وأما الرجلان، فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين ولا يتقدمهم ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه، ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعاً حيث يقعد. ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة، وفي ضمنها نوع من الأجنبيّة والتكلف، فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب. ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهراً وباطناً وزين باطنه بالحب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة.

خاتمة لهذا الكتاب

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء: إن أردت حسن العشرة فائق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبه منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع من غير مذلة. وكن في جميع أمورك في أوسطها فكل طرفي قصد الأمور ذميمة. ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال إصبعك في أنفك وكثرة بصافك وتنخمك وطرده الذباب من وجهك وكثرة التمثي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل تبذل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيدك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجتث على ركبتيك، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفك بالصبي وكلمه بما يشتهي ما لم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقاً عنده فإن سقطه الداخل بين الملك وبين أهله سقطه لا تتعش وزلة لا تقال، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد

الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياح لموضع البصاق، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم. وإن ظهرت لك المودة وإن لا تتجشأ بحضرتهم، ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفساء السر والقدر في الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم. وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترئ عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجري السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون، وهو يميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذلة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب. وقد قيل: لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر. ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك".

الباب الثالث

في حق المسلم والرحم والجوار والملك

وكيفية المعاشرة مع من يدلي بهذه الأسباب

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة. وكل مخالط ففي مخالطته أدب والأدب على قدر حقه وحقه على قدر رابطة التي وقعت المخالطة. والرابطة إما القرابة وهي أخصها أو أخوة الإسلام وهي أعمها، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة، وإما الجوار، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس، وإما الصداقة أو الأخوة. ولكل واحد من هذه الروابط درجات. فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم أكد، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين أكد. وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى أن البلدي في بلاد الغربية يجري مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوار في البلاد. وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة. وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل أكد منه والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط. وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها فحق الصحبة في الدرس والمكتب أكد من حق صحبة السفر. وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة، والخليل أقرب من الحبيب؛ فالمحبة، ما تتمكن من حبة القلب والخلة ما تتخلل سر القلب؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلاً، وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة، فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله"، إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهراً وباطناً ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله، وقد منعه الخلة عن الاشتراك فيه مع أنه اتخذ علياً رضي الله عنه أخاً فقال: "علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة"، فعدل بعلي عن النبوة كما عدل بأبي بكر عن الخلة، فشارك أبو بكر علياً رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال، فإنه نبه عليه بقوله: "لاتخذت أبا بكر خليلاً"، وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله و خليله، وقد روي أنه سعد المنبر يوماً مستبشراً فرحاً فقال: "إن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى"، فإذن ليس قبل المعرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة، وما سواهما من الدرجات بينهما، وقد ذكرنا حق الصحبة والأخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلة، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال، كما أثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم، وكما أثره طلحة بدينه إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم، فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين، وحق الجوار، وحق الملك. أعني ملك اليمين. فإن النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح.

حقوق المسلم

هي: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبرقسه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك ورد جميع ذلك في أخبار وآثار. وقد روي أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أربع من حق المسلمين عليك: أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمديبرهم، وأن تحب تائبهم"، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: "رحماء بينهم" قال: يدعو صالحهم لاطالحهم وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال: اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال: اللهم اهده واغفر له عثرته. ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن البشير: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مثل المؤمنين في توادهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرُه بالحمى والسهر"، وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً". ومنها أن لا يؤدي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول، قال صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل: "فإن لم تقدر فدرع الناس من الشر فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك"، وقال أيضاً: "أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أندرون من المسلم؟" فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، قالوا: فمن المؤمن؟ قال: "من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم"، قالوا: فمن المهاجر؟ قال: "من هجر السوء واجتنبه"، وقال رجل: يا رسول الله: ما الإسلام؟ قال: "أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك" وقال مجاهد: يسلم على أهل النار الجرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده، فينادي: يا فلان: هل يؤذيك هذا؟ فيقول: نعم، فيقول: هذا بما كنت تؤذي المؤمنين. وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين"، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله، علمني شيئاً أنتفع به. قال: "عزل الأذى عن طريق المسلمين" وقال صلى الله عليه وسلم: "من زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له به حسنة، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يشر إلى أخيه بنظرة تؤذيه"، وقال: "لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يكره أذى المؤمنين"، وقال الربيع بن خيثم: الناس رجلان، مؤمن فلا تؤذه، وجاهل فلا تجاهله. ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه، فإن الله لا يحب كل مختال فخور. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد"، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" وعن ابن أبي أوفى: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته".

ومنها: أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة قتات"، وقال الخليل بن أحمد: من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك.

ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه. قال أبو أيوب الأنصاري: قال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة"، قال عكرمة: قال الله تعالى ليويسف بن يعقوب: بعفوك عن إخوانك رفعت ذكرك في الدارين. قالت عائشة رضي الله عنها: "ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله"، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً. وقال صلى الله عليه وسلم: "ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله".

ومنها: أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل. وروى علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت أهله"، وعنه بإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر"، وقال أبو هريرة: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها ولم تكن ركبته خارجة عن ركلة جليسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه" ومنها: أن لا يدخل على أحد

منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الاستئذان ثلاث، فالأولى: يستتصتون، والثانية: يستصلحون، والثالثة: يأذنون أو يردون". ومنها: أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقتة فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمر بالفقه والعلي بالبيان أدى وتأدى.

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان. قال جابر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم"، ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن، وقال جابر: قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم، فقال صلى الله عليه وسلم: "مه فأين الكبير؟"، وفي الخبر: "ما وقر شاب شيئاً إلا قبيض الله له في سنة من يوقره"، وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى يكون المطر غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللثام فيضاً وتغيض الكرام غيضاً ويجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم"، والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم. "كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيتلقيه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم"، وربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت وراءه، ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم، "وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره وربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول: لا تزرعوا الصبي بوله فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأدى ببوله فإذا انصروا غسل ثوبه".

ومنها: أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رقيقاً قال صلى الله عليه وسلم: "أتدرون على من حرمت النار؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "على اللين الهين السهل القريب"، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب السهل والطلق الوجه"، وقال بعضهم: "يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، فقال: إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام"، وقال عبد الله بن عمر: إن البر شيء هين؛ وجه طليق وكلام لين، وقال صلى الله عليه وسلم: "اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها"؛ فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: "لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام"، وقال معاذ بن جبل: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح"، وقال أنس رضي الله عنه: "عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت: لي معك حاجة؛ وكان معه ناس من أصحابه، فقال: اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها"، وقال وهب بن منبه: إن رجلاً من بني إسرائيل صام سبعين سنة يظطر ي كل سبعة أيام، فسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوي الشيطان الناس؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال: لو اطلعت على خطيئتي وذنبي ببني وبين ربي لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي طلبته، فأرسل الله إليه ملكاً فقال له: إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إلي مما مضى من عبادتك، وقد فتح الله بصرك فانظر، فانظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئب فقال: أي رب من ينجو من هذا؟ قال: الورع اللين.

ومنها: أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به. قال صلى الله عليه وسلم: "العدة عتية"، وقال: "العدة دين"، وقال: "ثلاث في المنافق: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ائتمن خان"، وقال: "ثلاث من كن فيه منافق وإن صام وصلى"، وذكر ذلك ومنها: أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسه، وبذل السلام"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً"، قال الحسن: أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك، واحدة لي وواحدة لك، وواحدة ببني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق، فأما التي لي: تعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه، وأما التي ببني وبينك: فعليك الدعاء وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به.

وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال: أي رب أي عبادك أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه.

ومنها: أن يريد في توقيير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم. روي أن عائشة رضي الله عنها كانت في سفر فنزلت منزلاً فوضعت طعامها، فجاء سائل فقالت عائشة: ناولوا هذا المسكين قرصاً، ثم مر رجل على دابة فقالت: ادعوه إلى الطعام. فقيل لها: تعطين المسكين وتدعين هذا الغني؟ فقالت: إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل، هذا المسكين يرضى بقرص، وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصاً. وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلاً؛ فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكاناً فقعده على الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال: "اجلس على هذا" فأخذه جرير ووضعته على وجهه وجعل يقبله ويبكي، ثم لفه ورمى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ما كنت لأجلس على ثوبك؛ أكرمك الله كما أكرمتني، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يميناً وشمالاً ثم قال: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه"، وكذلك كل من له عليه حق قديم فليكرمه. روي أن ظن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أضرته جاءت إليه فبسط لها رداءه، ثم قال لها: "اشفعي تشفعي وسلي تعطي" فقالت: قومي. فقال: "أما حقي وحق بني هاشم فهو لك"؛ فقام الناس من كل ناحية وقالوا: وحقنا يا رسول الله. ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين فبيع ذلك من عثمان رضي الله عنه بمائة ألف درهم، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس إليه فإن أبي عزم عليه حتى يفعل. ومنها: أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً. قال صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟" قالوا: بلى، قال: "إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هي الحالقة"، وقال صلى الله عليه وسلم "أفضل الصدقة إصلاح ذات البين"، وعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضي الله عنه قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله بآبي أنت وأمي ما الذي أضحكك؟ قال "رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من هذا، فقال الله تعالى: رد على أخيك مظلمته. فقال: يا رب لم يبق لي من حسناتي شيء، فقال الله تعالى للطالب: كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء؟ فقال: يا رب فليحمل عني من أوزاري". ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال: "إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال: فيقول الله تعالى: - أي للمتظلم - ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق أو شهيد؟ قال الله تعالى: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب قد عفوت عنه، فيقول الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة. ثم قال صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة"، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً"، وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب أكد منه، وقال صلى الله عليه وسلم: "كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما، أو يكذب لامرأته ليرضيها". ومنها: أن يستر عورات المسلمين كلهم. قال صلى الله عليه وسلم: "من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة"، وقال: "لا يستر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة"، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة"، وقال صلى الله عليه وسلم لما أخبره: "لو سترته بثوبك كان خيراً لك"، فإذن على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره. قال أبو بكر رضي الله عنه: لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره الله، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره الله. وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس: أرايتم لو أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين؟ قالوا: إنما أنت إمام، فقال علي رضي الله عنه: ليس ذلك لك، إذا يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود، ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ثم سألهم، فقال القوم مقالتهم الأولى، فقال علي رضي الله عنه: مثل مقالته الأولى. وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان متردداً في أن الوالي هل له أن يقضي بعلمه في حدود الله؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفاً بإخباره، ومال رأي علي إلى أنه ليس له ذلك. وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أفضها الزنى، وقد نيط بأربعة من العدول. يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمردود في المكحلة. وهذا قط لا يتفق. وإن علمه القاضي تحقيقاً لم يكن له أن يكشف عنه. فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات. ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه؟ فنرجو أن لا نحرّم هذا الكرم يوم تبلى السرائر: ففي الحديث: "إن الله ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها

مرة أخرى"، وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغظ فأخذ عمر بيدي وقال: أتدري من هذا؟ قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: "ولا تجسسوا" فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم، وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية: "إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تقسدهم"، وقال صلى الله عليه وسلم: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضح ولو كان في جوف بيته"، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لو رأيت أحداً على حد من حدود الله تعالى ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيري. وقال بعضهم: كنت قاعداً مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بأخر، فقال: هذا نشوان، فقال عبد الله بن مسعود: استنكوهوا فاستنكوهوه فوجده نشواناً فحبسه حتى ذهب سكره، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد: اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلده وعليه قباء أو مرط: فلما فرغ قال للذي جاء به: ما أنت منه؟ قال: عمه، قال عبد الله: ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سترت الحرمة! إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ: "وليعفوا وليصفحوا" ثم قال: "إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه، فقالوا يا رسول الله كأنك كرهت قطعه فقال: "وما يمنعي؟ لا تكونوا عوناً للشياطين على أخيكم؟" فقالوا: ألا عفوت عنه؟ فقال: "إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيمه إن الله عفو يحب العفو" وقرأ: "وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم" وفي رواية فكأنما سفي في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة تغيره. وروى أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر، فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل، فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثة، قال الله تعالى: "ولا تجسسوا" وقد تجسست، وقال الله تعالى: "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها" وقد تسورت علي، وقد قال الله تعالى: "لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم" - الآية - ، وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام، فقال عمر رضي الله عنه: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عني لا أعود إلى مثلها أبداً فعفا عنه وخرج وتركه. وقال رجل لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: "إن الله ليذني منه المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم يا رب، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك قال له: يا عبدي لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون: "ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين" وقال صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل سوءاً ثم يخبر به، وقال صلى الله عليه وسلم: "من استمع خبر قوم وهم له كارهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة".

ومنها: أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن العيبة، فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً، قال الله تعالى: "ولا يسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم" وقال صلى الله عليه وسلم: "كيف ترون من يسب أبويه؟ فقالوا: وهل من أحد يسب أبويه؟ فقال: نعم يسب أبوي غيره فيسبون أبويه"، وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "يا فلان هذه زوجتي صافية"، فقال: يا رسول الله من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك، فقال: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم"، وزاد في رواية: "إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً" وكانا رجلين فقال: "على رسلكما إنها صافية" - الحديث - وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان: وقال عمر رضي الله عنه: من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن. ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال: يا أمير المؤمنين، إنها امرأتي فقال: هلا حيث لا يراك أحد من الناس؟ ومنهما: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما قدر عليه، قال صلى الله عليه وسلم: "إني أوتى وأسأل وتطلب إلي الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدي نبيه ما أحب"، وقال معاوية: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اشفعوا إلي لتؤجروا إني أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إلي فتؤجروا"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان" قيل: وكيف ذلك؟ قال: "الشفاعة يحقن بها الدم وتجر بها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخره"، وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كآني أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على

لحيته، فقال صلى الله عليه وسلم للعباس: "ألا تعجب من شدة حب مغيب لبريرة وشدة بغضها له؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو راجعته فإنه أبو ولدك، فقالت: يا رسول الله أتأمرني فأفعل؟ فقال: لا إنما أنا شافع".

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام. قال صلى الله عليه وسلم: "من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام"، وقال بعضهم: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ارجع فقل: السلام عليكم أدخل؟". وروى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته"، وقال أنس رضي الله عنه خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي: "يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خيرك بيتك"، وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسع وستون لأحسنهما بشراً"، وقال تعالى: "وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها" وقال عليه السلام: "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "أفشوا السلام بينكم"، وقال أيضاً: "إذا سلم المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة" وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولا يسلم عليه"، وقال عليه السلام: "يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم" وقال قتادة: كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة. وكان أبو مسلم الخولاني يمر على قوم فلا يسلم عليهم ويقول: ما يمنعني إلا أني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة. والمصافحة أيضاً سنة مع السلام، وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فقال عليه السلام: عشر حسنات، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال: عشرون حسنة، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون، وكان أنس رضي الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك. وروى عبد الحميد بن بهرام: أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوماً وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية. فقال عليه السلام: "لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدكم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه"، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تصافحوا أهل الذمة ولا تبدؤوهم بالسلام فإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطرق". قالت عائشة رضي الله عنها: إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السلام عليكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم" قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت بل عليكم السام واللعة فقال عليه السلام: "يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء" قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال "فقد قلت عليكم" وقال عليه السلام: "يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير"، وقال عليه السلام: "لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف"، قال أبو عيسى: إسناده ضعيف.

وقال عليه السلام: "إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة"، وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشراً"، وقال عمر رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادئ تسعون وللمصافح عشرة"، وقال الحسن: المصافحة تزيد في الود. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تمام تحياتكم المصافحة"، وقال عليه السلام: "قبلة المسلم أخاه المصافحة"، ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركاً به وتوقيراً له. وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: قيلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم، وعن كعب بن مالك قال: لما نزلت تويتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده، وروى أن أعرابياً قال: يا رسول الله انذن لي فأقبل رأسك ويدك قال: فأذن له ففعل، ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده وتحيا بيكيان. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصافحه فقال: يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المسلمين إذا التقيا فتصافحا تحاتت ذنوبهما"، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملاً خيراً منهم وأطيب. أو قال: وأفضل"، والانحناء عند السلام منهى عنه. قال أنس رضي الله عنه: قلنا يا رسول الله أينحني بعضنا لبعض؟ قال: "لا" قال: فيقبل بعضنا بعضاً؟ قال: "لا" قال: فيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: "نعم"، والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر، وقال أبو ذر رضي الله عنه: ما لقيته

صلى الله عليه وسلم إلا صافحني، وطلبني يوماً فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالترمني فكانت أجود وأجود.

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت، وأخذ عمر يغرز زيد حتى رفعه وقال: هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد. والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام، قال أنس: ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك، وروي أنه عليه السلام قال مرة: "إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم"، وقال عليه السلام: "من سره أن يمثل له الرجال قياماً ليتبوا مقعده من النار"، وقال عليه السلام: "لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا"، وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي. وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته وإنما هي كرامة أكرمه بها أخوه فإن لم يوسع له فلينظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه" وروي أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبول فلم يجب، فيكرهه السلام على من يقضي حاجته، ويكره أن يقول ابتداءً: عليك السلام، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام: "إن عليك السلام تحية الموتى" قالها ثلاثاً، ثم قال: "إذا لقي أحدكم أخاه فليقل: السلام عليكم ورحمة الله" ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً إن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد إذا أقبل ثلاثة نفر فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها، وأما الثاني فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة. أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر الله لهما قبل أن يتفرقا" وسلمت أم هانئ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من هذه" فقيل له: أم هانئ، فقال عليه السلام: "مرحباً بأم هانئ".

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويناضل دونه وينصره، فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام. وروى أبو الدرداء: أن رجلاً نال من رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة"، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ذكر عند أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أذله الله بهما في الدنيا والآخرة، ومن ذكر عند أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة" وقال عليه السلام: من حمى عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله تعالى له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار"، وقال أبو جابر وأبو طلحة: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمة نصره الله في موطن يجب فيه نصره، وما من امرئ خذل مسلماً في موطن ينتهك فيه حرمة إلا خذله الله في موضع يجب فيه نصرته". ومنها: تشميت العاطس. قال عليه الصلاة والسلام في العاطس: "يقول: الحمد لله على كل حال، ويقول الذي يشمته: يرحمك الله، ويرد عليه العاطس فيقول: يهدمك الله ويصلح بالكم"، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا ويقول: "إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله رب العالمين، فإذا قال ذلك فليقل من عنده: يرحمك الله فإذا قالوا ذلك فليقل: يغفر الله لي ولكم"، وشمتم رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطساً ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال: "إنه حمد الله وأنت سكت"، وقال صلى الله عليه وسلم: "يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثاً فإن زاد فهو زكام"، وروي أنه شمت عاطساً ثلاثاً فعطس أخرى فقال إنه مزكوم"، وقال أبو هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غض صوته واستتر بثوبه أو يده. وروي خمر وجهه. وقال أبو موسى الأشعري: كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول: "يهدمكم الله"، وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه: أن رجلاً عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من صاحب الكلمات؟" فقال: أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيراً، فقال: "لقد رأيت اثني عشر ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته"، وقال عليه السلام: "العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان فإذا تئأب أحدكم فليضع يده على فمه، فإذا قال: هاها، فإن الشيطان يضحك من جوفه"، وقال إبراهيم النخعي: إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله. وقال الحسن: يحمد الله في نفسه. وقال كعب: قال موسى عليه السلام: يا رب أقریب أنت فأناجيك إم بعيد فأناديك؟ فقال: أنا جليس من ذكرني فقال: فإننا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجناية والغائط، فقال اذكرني على كل حال.

ومنها: أنه إذا بلي بذى شر فينبغي أن يتحملة ويتقيه قال بعضهم: خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالفة، فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر. وقال أبو الدرداء: إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلغهم وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف سره، قال الله تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن السيئة" قال ابن عباس في معنى قوله: "ويدروون بالحسنة السيئة" أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة. وقال في قوله تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض"، قال بالرغبة والرغبة والحياء والمداراة. وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذنوا له فينس رجل العشييرة هو"، فلما دخل ألان له القول حتى ظننت أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألتت القول فقال: "يا عائشة إن شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه"، وفي الخبر: "ما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة".

وفي الأثر: خالطوا الناس بأعمالكم وزابلوهم بالقلوب. وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدأ حتى يجعل الله له منه فرجاً. ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واحشروني في زمرة المساكين"، وقال كعب الأحبار: كان سليمان عليه السلام في مكة إذا دخل المسجد فرأى مسكيناً جلس إليه وقال: مسكين جالس مسكيناً. وقيل: ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يا مسكين. وقال كعب الأحبار: ما في القرآن من: "يا أيها الذين آمنوا" فهو في التوراة "يا أيها المساكين" وقال عبادة بن الصامت: إن للنار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين؛ وقال الفضيل: بلغني أن نبياً من الأنبياء قال: يا رب كيف لي أن أعلم رضاك عني؟ فقال: انظر كيف رضا المساكين عنك. وقال عليه الصلاة والسلام: "وإياكم ومجالسة الموتى"، قيل: ومن الموتى يا رسول الله؟ قال: "الأغنياء" وقال موسى: إلهي أين أبغيك؟ قال عند المكسرة قلوبهم. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يغبطن فاجراً بنعمة فإنك لا تدري إلى ما يصير بعد الموت فإن من ورائه طالباً حثيثاً"، وأما اليتيم؛ فقال صلى الله عليه وسلم: "من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة البتة"، وقال عليه السلام: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وهو يشير بإصبعيه"، وقال صلى الله عليه وسلم "من وضع يده على رأس يتيماً ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيماً يساء إليه".

ومنها: النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه، قال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن يحب للمؤمن كما يحب لنفسه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئاً فليمطه عنه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة" وقال صلى الله عليه وسلم: "من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين"، وقال عليه السلام: "من فرج عن مؤمن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة"؛ وقال صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" فقيل كيف ينصره ظالماً؟ قال: "يمنعه من الظلم"، وقال عليه السلام: "إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غمماً أو يقضي عنه ديناً أو يطعمه من جوع"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من حمى مؤمناً من منافق يغتنه بعث الله إليه ملكاً يوم القيامة يحمي لحمه من نار جهنم"، وقال صلى الله عليه وسلم: "خصلتان ليس فوقهما شيء من البر: الإيمان بالله والنفع لعباد الله"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من لم يهتم للمسلمين فليس منهم"، وقال معروف الكوفي: من كل يوم: اللهم ارحم أمة محمد كتبه الله من الأبدال. وفي رواية أخرى: اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد. كل ثلاث مرات. كتبه الله من الأبدال، وبكى علي بن الفضيل يوماً فقيل له ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى وسئل عن ظلمه ولم تكن له حجة. ومنها: أن يعود مرضاهم فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله. وأدب العائد خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وغض البصر عن عورات الموضع. وعند الإستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول: أنا إذا قيل له: من، ولا يقول: يا غلام، ولكن يحمد ويسبح، وقال صلى الله عليه وسلم: "تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو وتماح تحياتكم المصافحة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة حتى إذا قام وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قررت فيه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى: طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلاً في

الجنة"، وقال عليه السلام: "إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال: انظر ماذا يقول لعوده؟ فإن هو إذا جاؤوا حمد الله وأثنى عليه رفعنا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول: لعبيدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدل له لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يصب منه"، وقال عثمان رضي الله عنه: مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم أعينك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد" قالها مراراً، ودخل على بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له: "قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بليتك أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فإنك ستعطي إحداهن"، ويستحب للعليل أيضاً أن يقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر. وقال علي بين أبي طالب رضي الله عنه: إذا شكا أحدكم بطنه فليسال امرأته شيئاً من صداقتها ويشترى به عسلاً ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والمريء والشفاء والمبارك. وقال صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه بجاه الله من النار"، قلت: بلى يا رسول الله قال: "يقول: لا إله إلا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت سبحانه رب العباد والبلاد والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على كل حال. الله أكبر كبيراً إن كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان. اللهم إن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هذا فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم الحسنى وباعدني من النار كما أولياءك الذين سبقت لهم منك الحسنى"، وروي أنه قال عليه السلام: "عبادة المريض بعد ثلاث فواق ناقة"، وقال طاوس: أفضل العيادة أخفها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عبادة المريض مرة سنة فما ازدادت فنافلة، وقال بعضهم: عبادة المريض بعد ثلاث. وقال عليه السلام: "أعربوا في العيادة وأربعوا فيها"، وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر والفزع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء.

ومنها: أن يشيع جنازتهم قال صلى الله عليه وسلم: "من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان"، وفي الخبر "القيراط مثل أحد"، ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال: لقد فرطنا إلى الآن في قرارات كثيرة. والقصد من التشيع قضاء حق المسلمين والاعتبار. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإننا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والأخر لا عقل لها. وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم ما دمت حياً. وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري لمن نعزي لحزن القوم كلهم. ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال: لو ترحمون أنفسكم لكان أولى. إنه نجا من أهوال ثلاث: وجه ملك الموت قد رأى، ومرارة الموت قد ذاق، وخوف الخاتمة قد أمن. وقال صلى الله عليه وسلم: "يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله". ومنها: أن يزور قبورهم، والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب، قال صلى الله عليه وسلم: "ما رأيت منظرأ إلا والقبر أظفح منه"، وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه. فبكى وبكىنا، فقال: "وما يبكيكم؟" قلنا: بكينا لبكائك. قال: "هذا قبر أمانة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى علي فأدركني ما يدرك الولد من الرقة"، وكان عمر رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبطل لحيته ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد"، وقال مجاهد: أول ما يكلم لين آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحده وبيت الغربة وبيت الظلمة. وهذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذر: ألا أخبركم بيوم فقري يوم أوضع في قبري. كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكرونني معادي وإن قمت عنهم لم يغتابوني. وقال حاتم الأصم: من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعوا لهم فقد خان نفسه وخانهم. وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من ليلة إلا وينادي مناد: يا أهل القبور من تغبطون؟ قالوا: نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون ولا نذكره"، وقال سفيان: من أكثر ذكر القبر وجدده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجدده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره فبراً فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال: "رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت" ثم يقول: يا ربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع. وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز فلما نظر إلى القبور بكى، وقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلاث وأصاب الهوام من أبدانهم؟ ثم بكى وقال: ولاش مل أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله؟.

وآداب المعزي: خفض الجناح، وإظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم.

وأداب تشييع الجنازة: لزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكر في الموت، والاستعداد له، وأن يمشي أمام الجنازة بقربها والإسراع بالجنازة سنة فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق. والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحداً حياً كان أو ميتاً فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك؟ فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها. ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله. ولا تبدل لهم دينك لتنتال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعادة ويذهب دينك ودينك فيهم ويذهب دينهم فيك، إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة وتتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم بمقت الله وعقوبته بعصيانهم فحسبهم جهنم يصلونها، فما لك تحقد عليهم ولا تستكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً وربما لا تجده. ولا تشكو إليهم أحوالك فيك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأناى تظفر به؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض. ولا تعلق عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء. وإذا سألت أماً منهم حاجة فهو أخ مستفاد وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدواً تطول عليك مقاساته. ولا تشغل بوعظ من ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعديك، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً من غير تنصيص على الشخص. ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك واستعد بالله أن يكلك إليهم. وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعد بالله من شرهم. ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله. ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي.

وأعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم فالله المحب والمبغض إلى القلوب، وكن فيهم سمياً لحقهم أصم عن باطنهم نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطنهم. واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقبلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقيير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير، ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان، فصحة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان، إن رضوا فظاھرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحنق لا يؤمنون في حقهم ولا يرجون في ملقهم، ظاھرهم ثياب وباطنهم ذناب، يقطعون بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون، يحصون عليك العثرات في صحبتهم يواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم. ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتححتاج إليه، فإن رضىته في الأحوال فاتخذة أباً لك إن كان كبيراً أو ابناً لك إن كان صغيراً أو أخاك إن كان مثلك فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق.

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام. فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك"، فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً"، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره"، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أول خصمين يوم القيامة جاران"، وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته"، ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فاطع الله فيه. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم: "هي في النار"، وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "اصبر" ثم قال له في الثالثة أو الرابعة: "اطرح متاعك في الطريق" قال: فجعل الناس يمشون به ويقولون ما لك؟ فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون: لعنه الله، فجاءه جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود وروى الزهري: أن رجلاً أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادي على باب المسجد: "ألا إن أربعين داراً جار"، قال الزهري: أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأوما إلى أربع جهات.

وقال عليه السلام : "اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس، فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها. ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله. وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله، ويمن الفرس ذله وحسن خلقه وشؤمه صعوبته وسوء خلقه".

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق، ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول: يا رب سل هذا لم منعي معروفه وسد بابه دوني؟.

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داره في دين ركهه وكان يجلس في ظل داره، فقال: ما قمت إذأ بحرمة ظل داره إن باعها معدماً فدفع إليه ثمن الدار وقال: لا تبعها.

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره فقيل له: لو اقتنيت هراً؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي. وجملة حق الجار: أن يبدأ بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فئانه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستتر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعه إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه. هذا إلى جملة التي ذكرناها لعامة المسلمين، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان أعتنه، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعته جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزبته، ولا تستعلي عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذ به بتقار قدرك إلا أن تغرف له منها"، ثم قال: "أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله"، هكذا رواه عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يسلم شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، حتى قال ذلك مراراً فقال له: لم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه وقال هشام: كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك، وقال أبو ذر رضي الله عنه: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم وقال: "إذا طبخت قدرأ فأكثر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها"، وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله إن لي جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر نائم ببابه عني، وربما كان الذي عندي لا يسعهما فأيهما أعظم حقاً؟ فقال: "المقبل عليك ببابه" ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصي جاراً له، فقال: لا تناص جارك، فإن هذا يبقى والناس يذهبون. وقال الحسن بن عيسى النيسابوري: سألت عبد الله بن المبارك فقلت: الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه امرأ والغلام ينكره، فأكره أن أضربه ولعله بريء وأكره أن أدعه فيجد علي جاري، فكيف أصنع؟ قال: إن غلامك لعله أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث، فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث، وهذا تطف في الجمع بين الحقين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أحب: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذم للجار، والتذم للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر المسلمين لا تحقرن جارة لجاتها ولو فرسن شاة"، قال صلى الله عليه وسلم: "إن من سعادة المرء المسلم: المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء"، وقال عبد الله: قال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت، قال: "إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعته يقولون: قد أسأت فقد أسأت"، وقال جابر رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبيعه حتى يعرضه عليه" وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى". وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره" وكان أبو

هريرة رضي الله عنه يقول: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمينها بين أكنافهم. وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك. وقال صلى الله عليه وسلم: "من أراد الله به خيراً عسله" قيل: وما عسله؟ قال: "يحببه إلى جيرانه".
 ؟ حقوق الأقارب الرحم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى: أنا الرحمن وهذه الرحم لها أسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بنته"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه"، وفي رواية أخرى: "من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليثق الله وليصل رحمه" وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: "أتقاهم الله وأوصلهم لرحمه، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر"، وقال أبو ذر رضي الله عنه: "أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأاً"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل إذا انقطعت رحمه وصلها"، وقال عليه السلام: "إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجاراً، فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم". وقال زيد بن أسلم: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج، فقال عليه السلام: "إن الله قد منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم"، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قدمت علي أمي، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي مشركة أفصلها؟ قال: "نعم". وفي رواية: أفأعطيها؟ قال: "نعم صليها". وقال عليه السلام: "الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان"، ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائض كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى: "لن تتالوا البر حتى تتفقوا مما تحبون" قال: يا رسول الله، هو في سبيل الله، وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام: "وجب أجرك على الله قسمه في أقاربك"، وقال عليه السلام: "أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح"، وهو في معنى قوله: "أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفق عن ظلمك" وروي أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله: مروا الأقارب أن يتزاورا ولا يتجاورا، وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث النزاحم على الحقوق، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة، فيتضاعف تأكد الحق فيها. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتره فيعتقه"، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله"، وقد قال صلى الله عليه وسلم: من أصبح مريضاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحداً فواحداً، وإن ظلماً وإن ظملاً، وإن ظملاً. ومن أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، ومن أمسى مثل ذلك، وإن كان واحداً فواحداً، وإن ظملاً وإن ظملاً وإن ظملاً، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم"، وقال صلى الله عليه وسلم: "بر أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك".

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: يا موسى، إنه من بر والديه وعقني كتبته باراً، ومن برني وعق والديه كتبته عاقاً.

وقيل: لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له: فأوحى الله إليه: أنتعاضم أن تقوم لأبيك، وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبياً.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجرهما من غير أن ينقص من أجرهما شيء"، وقال مالك بن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما بعد وفاتهما؟ قال: "نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي الأب"، وقال صلى الله عليه وسلم: "بر الوالدة على الولد ضعفان"، وقال صلى الله عليه وسلم: "دعوة الوالدة أسرع إجابة. قيل: يا رسول الله، ولم ذاك؟ قال: هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط". وسأله رجل فقال: يا رسول الله من أبر؟ فقال: "بر والديك"، فقال: ليس لي والدان، فقال: "بر ولدك، كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق"، وقال صلى الله عليه وسلم: "رحم الله والداً أعان ولده على بره"، أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله. وقال صلى الله عليه وسلم: "ساووا بين أولادكم في العطية" وقد قيل: "ولدتك ريحانك تشمها سبعا وخادمك سبعا، ثم هو عدوك أو

شريكك" وقال أنس رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى؛ فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه؛ ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه".

وقال عليه الصلاة والسلام: "كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبج عنه يوم السابع ويحلق رأسه"، وقال قتادة: إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد.

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: أنت أفسدته. ويستحب الرفق بالولد: رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل وله الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم! فقال عليه الصلاة والسلام: "إن من لا يرحم لا يرحم"، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اغسلي وجه أسامة"، فجعلت أغسله وأنا أنفة، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال: "قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية"، وتعرثر الحسن. والنبي صلى الله عليه وسلم على منيره. فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة" وقال عبد الله بن شداد: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمراً! فقال: "إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته"، وفي ذلك فوائد: إحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجداً، وفيه الرفق بالولد والبر، وتعليم لأمته. وقال صلى الله عليه وسلم: "ريح الولد من ريح الجنة".

وقال يزيد بن معاوية: أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل إليه قال له: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جلييلة؛ فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك؛ فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت علي وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب؛ فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقامه إياها على الشطر.

فهذه هي الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين وكيفية القيام بحقهما تعرف مما ذكرنا في حق الأخوة، فإن هذه الرابطة أكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران.

أحدهما: أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض، حتى إذا كانا يتنصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما، لأن ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم. وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نقل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نقل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين. قال أبو سعيد الخدري: هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد، فقال عليه السلام: "هل باليمن أبواك" قال: نعم، قال: "هل أدنا لك؟" قال: لا، فقال عليه السلام: "فارجع إلى أبويك فاستأذنهما، فإن فعلا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد"، وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم ليستشيره في الغزو فقال: "ألك والده؟" قال: نعم. قال: "فألزمها فإن الجنة عند رجليها". وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال: ما جئتك حتى أبكيت والدي، فقال: "ارجع إليهما فأضحكما كما أبكيتهما".

وقال صلى الله عليه وسلم: "حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده".

وقال عليه السلام: "إذا استصعبت على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه".

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح، فأما ملك اليمين فهو أيضاً يقتضي حقوقاً في المعاشرة لا بد من مراعاتها، فقد كان من آخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: "اتقوا الله فيما ملكت أيما نكح أطمعوه مما تأكلون واكسوه مما تلبسون ولا تكفوه من العمل ما لا يطيقون، فما أحببتهم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم" وقال صلى الله عليه وسلم: "للملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق"، وقال عليه السلام: "لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيئ الملكة"، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "اعف عنه في كل يوم سبعين مرة"، وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطقه وضع عنه منه. ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً على دابته وغلماه يسعى خلفه فقال له: يا عبد الله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك فحملة ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً مل مشى خلفه. وقالت جارية لأبي الدرداء: إنني سممتك منذ سنة فما عمل فيك شيئاً فقال: لم فعلت ذلك؟ فقالت: أردت الراحة منك، فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله. وقال الزهري: متى قلت للملوك أجزاك الله فهو حر. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك. وكان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك؟ مولاك يعصي مولاه وأنت تعصي مولاك، فأغضبه يوماً فقال: إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر. وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون؛ فقال: يا جارية أحرقتني، قالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال: وما قال الله تعالى؟ قلت: قال: "والكاظمين الغيظ" قال: قد كظمت غيظي، قالت: "والعافين عن الناس" قال: قد عفوت عنك، قالت: زد فإن الله تعالى يقول: "والله يحب المحسنين" قال: أنت حرة لوجه الله تعالى. وقال ابن المنكدر: إن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له فجعل العبد يقول: أسألك بالله أسألك بوجه الله، فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صباح العبد فانطلق إليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك يده فقال رسول الله: "سألك بوجه الله فلم تعفه فلما رأيتني أمسكت يدك" قال: فإنه حر لوجه الله يا رسول الله، فقال: "لو لم تفعل لسفعت وجهك النار"، وقال: صلى الله عليه وسلم: "العبد إذا نصح لسبيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين"، ولما أعتق أبو رافع بكى وقال: كان لي أجران فذهب أحدهما. وقال صلى الله عليه وسلم: "عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسبيده، وعفيف متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار: أمير متسلط؛ وذو ثروة لا يعطي حق الله، وفقير فجور"، وعن مسعود الأنصاري قال: بينا أنا أضرب غلاماً إذ سمعت صوتاً من خلفي "اعلم يا أبا مسعود" مرتين فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقيت السوط من يدي فقال: والله أشد أقدرك عليك منك على هذا"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه"، رواه معاز. وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناوله لقمة"، وفي رواية: "إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه؛ فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه فليجلسه وليأكل معه، فإن لم يفعل فليناوله أو ليأخذ أكلة فليروغها. - وأشار بيده. - وليضعها في يده وليقل: كل هذه". ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال: يا أبا عبد الله ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادمة في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين. وقال صلى الله عليه وسلم: "من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران"، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كل راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعامه وكسوته، ولا يكلفه فوق طاقته، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته ويتفكر عند غضبه عليه بهوته أو بجنائته في معاصيه وجنابته على حق الله تعالى وتقديره في طاعته مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته. وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يسأل عنهم: رجل فارق الجماعة، ورجل عصى إمامه فمات عاصياً فلا يسأل عنهما، وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا يسأل عنها. وثلاثة لا يسأل عنهم: رجل ينازع الله رداءه ورداؤه الكبرياء وإزاره العز، ورجل في شك من الله، وقنوط من رحمة الله".